# جنون فكرة

.. "وجدتها..!" هبَّ من مضجعه بعد أن كادت الغفوة تطيح برأسه وما يجول فيه، دارت الفطنة في حلبة دماغه دورتها الأولى، برقت عيناه، تنفَّس بعمق وقد ارتسمت ابتسامة يتيمة على شفتيه المسكينتين، حكَّ رأسه بعجل فتلألأت شعرات رأسه الشائبة من بين أطراف أصابعه، ثمَّ راح يسوِّي شاربه المتمرِّد وهو يتلمَّظ لذَّة النشوة.

.. أخيراً.. وجدها..أخيراً انعتق من قيدها وتحررت هي من سجنه، بعد كلِّ تلك السنوات، بعد محاولات حثيثة في التنقيب عنها كانت تبوء دائماً بالعجز عن التميُّز..عن التفرُّد..في عصر بات فيه التفرُّد فنَّاً..ألقاً..ورزقاً..!

ها قد انبثقت.. دفقة واحدة.. بعنوانها وعناصرها ومفرداتها، تلك الفكرة التي آن بها أن يتغيَّر مجرى حياته، ستنتشله من حضيض البؤس والتَّعس، وترتفع به إلى رقيٍّ طالما حلم أن يتمرَّغ به كأولئك المفكرين والكتَّاب العظماء الذين حالفهم الحظ بفكرة..!..

فكرة.. رفعتهم وجعلت كلَّ ما تلا من كلماتهم يستحقُّ الترتيل والدراسة والتمحيص، فالعقل الذي يبدع تلك الفكرة العظيمة لا بدَّ أنَّ جميع أفكاره تتمخَّض العظمة، ولا بدَّ أنَّ جميع كتاباته تستحقُّ النشر من دون تفنيد، ويبقى الاطِّلاع عليها فقط لنيل الحظوة لأول من يقرأ أحدث مشاريع الكتابة لصاحب تلك الفكرة العظيمة التي انفجرت وانبثقت في يوم كذا.. من شهر كذا.. سنة كذا..!

انفرجت أسارير وجهه، اتسعت ابتسامته حتَّى طفحت على جميع مسام بشرته، وكأنَّ عضلات وجهه قد نسيت كيف يكون الابتسام أو أنَّ خدراً أصابها لقلَة الاستعمال، كان الليل موغلاً في بيته، يمشي بتؤدة وهو يتسربل على عيني زوجته وأولاده، لطالما كان ثقيلاً على صدرك يا سالم، من الآن.. من الآن سيكون ليلك ذلك الليل الذي ينشقُّ عنه فجر حياة جديدة، ما أسهل الحياة حينما تتغيَّر بفكرة..! وأخيراً ضحكت لك الأيام يا سالم..!

لطالما عانيت من الإهمال واللامبالاة، لطالما نفد مداد قلمك ولم تجد من يقرأ كلماتك، حتَّى زوجتك ملَّت وسئمت من الإصغاء إليك، وكأنَّها حُمِّلت مسؤولية إهمال العالم لك، وبات واجباً عليها أن تعوِّض فيك ذلك النقص بكلمات الإطراء والمديح ذاتها في كلِّ مرَّة

تصحو فيها من إغفاءاتها على حماستك الجهورية في أحد مقاطع مقالاتك الحامية.

وقف أمام الشرفة ورفع رأسه عالياً ليخترق كتامة الأبنية ويتأمَّل فضاء مدينته الحزينة، وقد رُصِّع بنجوم خافتة يغشاها ضباب يقتل الأرض بصمته المطبق على الأفئدة، وغيوم تعد بمطر غزير وفرج قريب، هل ستسوقك الأقدار يا سالم أن تربح جائزة مسابقة ما..؟ حتَّى إن حالفك الحظُّ ولم يكن هناك من هو أكفأ منك، لكنَّ هذا لا يمنع أن تكون مبدعاً، وتتقمَّص حالة المبدعين ونفسيتهم، هذا لا يمنع أن ترسم لنفسك عالماً خاصَّاً كالذي يرسمون، لكن.. هل يكون مليئاً بالوهم والسراب..؟..أما تخشى أن تُكشف في لقطة خاطفة..؟ أما تخشى أن تسقط أمامك كلُّ الصور والعوالم التي رسمتها وتبقى وحيداً مع هيكل عظمي أجوف أمام مرآتك..؟

من بين عقدة حاجبيه اشتعلت نظرة متمرِّدة..لا..إنها فكرة حقيقية.. إبداعية.. هذه الفكرة الجهنَّميَّة ستقلب العالم رأساً على عقب، ستغيِّر وجهه ولونه، ستصحح مساره، ستحلُّ كلَّ هذه الأزمات السياسية المعقَّدة، فهي تجمع بين وجهات نظر الجميع، أجل.. ستبدأ بالحلِّ من الأعلى وليس من الأسفل، تماماً كما يُغسل الدرج من أعلاه، وعلى صورة ترضي

الجميع، ستجمع قلوب الزعماء وعقولهم على تلك الفكرة.

هذه الفكرة ستحلُّ المشكلة الاقتصادية في العالم بأسره، ستلغي مصطلح غلاء الأسعار من قاموسه، ستجعل الخبز يوزَّع بالمجان، وضع يده على بطنه الخاوي مبتسماً.. لن يشكو أحد الجوع على الإطلاق.

هذه الفكرة ستهدِّئ النفوس وتصفِّي القلوب، وتجمع البشر على أتقى قلب رجل منهم، لن يبقى خيانة على وجه الأرض، لن يبقى كذب.. ولا غشّ.. ولا أثرة، سيغرق العالم البشري في بحر من الأمن والطمأنينة والسلام..!

مدَّ رأسه ليرنو إلى زوجته وهي تغطُّ في نوم عميق ، ابتسم طويلاً من وداعتها النائمة التي تودِّعها حالما تفيق، وأخيراً يا عزيزتي.. ظهرت الفكرة التي أشتري لك بها غسَّالة آليَّة حديثة وجهاز (مايكروويف) وثياباً جديدة تتباهين بها أمام جاراتك، وأشتري لي حاسوباً وللأطفال ألعاباً عديدة، أجل يا عزيزتي.. كفانا فقراً.. كفانا بؤساً ولوعة، لم يمض سوى بضعة أيام على ذلك اليوم، يوم غضبت مني ومن مكوثي الطويل وراء المنضدة، يومها طفح بك الكيل ومزَّقت أوراقي وكسرت كلَّ أقلامي، وأقسمت الأيمان أن تمنعي عني كلَّ سبيل يودي بي إلى تهلكة الكتابة، فهي سرُّ بؤسنا وشقائنا..

هكذا كنت تدَّعين.. كنت مذهولاً بك.. ألهذه الدرجة تغارين من القلم لأنني أداعبه بأناملي أكثر مما أداعبك..؟

أعلم جيداً أحاسيس المرأة وكيف تتخفَّى من غيرتها وراء أسباب واهية وغير مقنعة للرجل، الآن.. عليك أن تحبي ضرَّتك ( الكتابة ) جيداً فهي ستحقق لك الكثير من الأحلام والأماني التي كان عاجزاً عنها مرتَّب ضعيف، أما قلت لك مراراً إنَّ فكرة واحدة تنتج لي ربح سنوات من عمل أخيك البنَّاء أو زوج أختك سائق سيارة الأجرة، كنت تريدينني أن أعمل عملاً إضافياً يهدُّ كاهلي وينشِّف عقلي.. ما لي وهذا الغمّ..؟

الآن ستتهافت عليَّ دور النشر لنيل الرضا ونظم تلك الفكرة بين مطبوعاتها، سأحار في مواعيد أنظمها للمجلات ووسائل الإعلام لإجراء اللقاءات، سأبحث عن مخرج متألِّق يجيد تصوير فكرتي على شاشة التلفاز في نسق إعلاميٍّ فريد الطراز..!

كلُّ ما عليَّ فعله الآن هو تقييد هذه الفكرة عبر السطور قبل أن تطير من سجني وتهرب بعيداً عني، يقولون إن الفكرة المتألِّقة يغيب ومضها سريعاً إن لم تقتنصه في لقطة خاطفة، وإن أردت أن تبحث عن أجمل أفكارك فتلك هي التي غابت عن ذهنك أول ما خطرت..!

وسط الظلمة راح سالم يدسُّ يده في درج الطاولة ليسحب في صمت قلماً وورقة، هيَّا يا سالم.. أسرع لتقيِّد هذه الفكرة فقد بدأت تتملَّص من بنات أفكارك، ابحث عن قلم تخطُّ به رؤوس الأقلام، عن ورقة تدوِّن عليها الملاحظات، عجزت يده عن ملامسة القلم، بدأ يشعر بالاستفزاز، استعان بحدَّة بصره ليجد الدرج خاوياً إلا من بقايا خشبية بُريت منها الأقلام، احتدم صدره وبدأ وجهه يحتقن، أشعل الضوء، راح يفتح كلَّ درج وكلَّ خزانة، وميض الضوء وقرقعة الصوت أيقظا زوجته، فتحت عينيها بكلِّ بلاهة، وسألته :

- عمَّ تبحث في آخر الليل..؟

قال غاضباً : أين أقلامي..؟ أين أوراقي..؟

مضى الوقت طويلاً حتَّى فرغت من تثاؤبها، ثمَّ قالت :.. يوه.. ألم أقسم يومها ألا يبقى في البيت قلم ولا ورقة، لقد تخلَّصت حتَّى من أقلام الكحل حتَى لا أحنث بيميني، أما خطر ببالك أن تفتقدها إلا الآن..؟

نظر إليها وقد اشتعل الغضب في عينيه، ثمَّ زمجر ثائراً وسط سكون الليل ليحوِّل البيت إلى بركان هائج :

الله يلعنك يا وجه الشؤم، ما تركت لي كسرة رصاص أكتب بها، يا عدوَّة الكتابة والثقافة، أعلنت عبوديتك للجهل بكلِّ طلاسمه..!

فتح الصغار أعينهم وكأنَّهم يشاهدون مقاطع مثيرة على التلفاز جعلت من أبيهم محطَّة للذهول والوجوم، فقد كان يتحرَّك بعشوائية كصرصار يتحاشى الأقدام، من أين سيأتي بالقلم والورقة وقد شارفت الساعة على الرابعة فجراً؟ المطر يهطل بغزارة، وجميع المحلاَّت والمكتبات لا بد مغلقة..!

جلس على الكرسي وصدره يغلي كالمرجل، طأطأ رأسه وقدماه تهزَّان الأرض غضباً وحنقاً، راح يبحث عن طريقة يحصل فيها على القلم.. أين سأخرج في عتمة هذا الليل تحت سيل المطر..؟ هل أبحث عمَّن يعيرني قلماً وورقة..؟ يجب أن أجد من الجيران من أطرق بابه. وإن سألني والنوم يتفقّأ من عينيه لمَ أريدهما في هذا الوقت المتأخر..؟ ماذا سأجيبه..؟

سأقول له : سأدوِّن فكرة عمري، الفكرة التي سترفعني وترفعك، سترفع البشر إلى طور البشرية والإنسانية الحقيقي، سيمحى عنَّا عهد الظلم والهوان، سننعم بالرفاه والرخاء.

سيفرك عينيه مدهوشاً ويسألني : وما هي هذه الفكرة التي عجز عنها كلُّ من كان قبلك..؟

حينها سأنتشي زهواً وأحتفظ بها كيلا يسرقها أحد منِّي قبل أن أضمن حقوق نشرها، سأقول له : أعدك أن تكون أول من يقرؤها ويطَّلع عليها بعد النشر.

ثمَّ التفت إلى زوجته وقد عادت إلى نومها كأنَّ شيئاً لم يكن، نظر إليها بنزق وهو يحدِّث نفسه : لا بدَّ أن أحصل على الورقة والقلم يا عدوَّة الحضارة، تريدين أن تقصمي ظهري وتمنعي عني وحي الكتابة..؟ هذا بعيد عنك يا وجه الفقر والتعاسة..! وأنا الذي كنت أقول لنفسي ما سرُّ هذا النحس الذي يلاحقني منذ تزوجت ؟ والله.. والله..لأتزوَّجنَّ عليك أول ما أقبض المبلغ الفلاني، وسآخذ من هي أجمل منك وأصغر منك، سأكتب وأكتب.. سأظلُّ أكتب.. الكتابة عالمي.. القلم رديفي.

.. أوه.. كفاني ثرثرة، يجب أن أجد ما أدوِّن به الفكرة، جحظت عيناه فجأة، جمدت أطرافه، فغر فمه.. فكرة..!.. أيَّة فكرة..؟..ماذا كانت الفكرة..؟ عمَّ كانت تتحدَّث الفكرة..؟.. ويحي.. لقد طارت الفكرة....؟!!

obeikandl.com